المقدمة

الأحد ٢٧ ديسمبر ٢٠١٥م يكتمل العام الخامس والعشرون بعد المائة من عمر دار المعارف كأول دار نشر على مستوى العالم العربى.

كانت دائما هذه المؤسسة سباقة لخدمة القارئ أينما كان وبتوجه عربى ونظرة شاملة للنشر حيث امتدت إصداراتها من أدب الأطفال للنشر الأدبى لأعمال كبار الكتاب للنشر المتخصص حيث شملت الإصدارات أجيالا وأجيالا على مستوى الوطن العربى وتركت بصمة كبيرة نتوارثها.

لذا كانت مهمة الزميل إيهاب الملاح فى القيام بإعداد هذا الكتاب ليست بالهينة واستغرق فى عملها وقتا وجهدا كبيرين يحسبان له لأخراجه بهذه الصورة الرائعة.

فدار المعارف تستحق أكثر من كتاب للوقوف على ما بذله من سبقونا من جهد سواء المؤسسين أو من تسلموا المسئولية من بعدهم..

يكفى دار المعارف فخرا أن شارك فى لجنة النشر بها كل من العقاد وطه حسين وعلى الجارم وغيرهم من كبار الأدباء فى مصر وتستمر المسيرة بإذن الله بجهد العاملين وروحهم وعملهم على رفعة هذا الاسم والحفاظ عليه وتطوير الأداء لمسايرة العصر وتقديم كل جديد لتكون ولتظل دار المعارف منارة للفكر والمعرفه فى مصر والعالم العربى.

سعيد عبده مصطفى

رئيس مجلس الإدارة

نجيب الريحاني
مؤسس مدرسة المقارنة والمكالمة

ولد فى أول مايو سنة ١٨٦٥م وتوفى فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٨م

تمهيد

هجرة الشوام إلى مصر فى القرن التاسع عشر

كانت أحد السمات البارزة للمجتمع المصرى منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين حيويته الكبيرة والتى كان أحد أهم أسبابها انفتاح مصر وتوافد الكثيرين عليها مهاجرين لأغراض شتى، ومن بين كل الهجرات، كانت هجرة الشوام أهمها وأكثرها تأثيرًا حيث بثت دماءً جديدة فى شرايين الثقافة والاقتصاد والاجتماع المصري، وهو تأثير لا زلنا نلاحظ بقاياه الآن.

وقد لعب الشوام خصوصا اللبنانيين، خلال الفترة من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، دورًا بارزًا فى الثقافة والفن والأدب والصحافة.

لم يكن الاضطهاد الدينى وحده سبب الهجرة، وخصوصا فى عهد "أحمد باشا الجزار"، ولكن أيضا نهضة "محمد على باشا" هى التى جذبت آلاف الشوام للحاجة إلى مترجمين من وإلى الإنجليزية والفرنسية، كما اجتذبت آلاف التجار وأصحاب الصناعات المختلفة. فى هذه الفترة كانت الشام تعيش حالا من التعصب الدينى والانغلاق الطائفى والظلم الاجتماعى وغياب الحرية، إضافة لقلة الموارد وضعف الاقتصاد.

فى هذه الفترة أيضًا، ومع التحولات الاقتصادية الكبيرة ظهرت أهمية الشوام المهاجرين كوسطاء مقبولين من الطرفين: الأجانب وأصحاب رأس المال أو المجتمع المصرى الذى قبل الوساطة منهم مفضلاً إياهم عن الأجانب، فكانت الفرصة مواتية لهم ساعدتهم مهاراتهم وإمكاناتهم الخاصة من إجادة اللغات والمعرفة بالغرب وثقافته أو الخبرات التجارية والصناعية الحديثة. فكان

أن قيضت لهم الأقدار لعب دور بارز فى الإسهام فى تحديث المجتمع المصرى وعصرنته من خلال أعمال الطباعة والترجمة والنشر، وسائر الأنشطة الثقافية والمعرفية وأيضا من خلال حركة إنشاء مصانع الصناعات الحديثة من زيوت وصابون وعطور وتبغ وأسلحة وحلج القطن وصناعة الحرير بل وتربية دودة القز! وسائر الأنشطة التجارية والمضاربات والسمسرة وأعمال البورصة.

عومل الشوام نفس معاملة المصريين، بل إن «محمد على» بعث بعضهم فى بعثاته إلى فرنسا، وزادت الهجرات مع تحالف محمد على مع الأمير «بشير الشهابى»، وتنوعت أنشطتهم من التجارة والصناعة إلى الأدب والفن والصناعة.

وكانت دمياط هى أولى مدن الهجرات الشامية، ومنها انطلقت إلى كل المدن المصرية تقريبا بما فيها مدن الصعيد، بل إن بعض الشوام ذهبوا واستقروا فى الخرطوم التى أسسها «محمد على» لتكون عاصمة للسودان.

كان المجتمع المصرى آنذاك مجتمعا ناهضا يضج حيوية، ومن ثم كان قادرا على الصهر والتذويب وتفكيك الطائفية لدى المهاجرة، لقد كان هذا مزاج وطبيعة شعب لكن أيضا سياسة دولة لا تهاون فيها، لذلك كان قرار إلغاء الطائفية فى المدارس وفتح هذه المدارس التى أسستها طوائف الشوام لأبناء كل الطوائف الأخرى وإغلاق من يخالف.

لم تكن هناك طائفية فى المجتمع المصري، بل كانت الدولة المصرية الحديثة من قاوم الطائفية والعنصرية فى الشام، ومن ثم كان سهلا على الشوام الهجرة والاستقرار بمصر حتى زاد عددهم على مائة ألف مهاجر معظمهم من المسيحيين.

لقد كانت مصر وقتها قاعدة كبرى لمشروع تحديثى قائد للمنطقة، يحاول الأخذ بكل أسباب التحديث والنهضة ولا يعانى الخوف من الآخرين بل يجد فى نفسه الثقة على استيعابه

والاستفادة منه. ومن يتأمل الصفحات الطويلة التى تؤرخ لمئات المفكرين والكتاب والصحفيين والفنانين والمبدعين الشوام الذين احتضنتهم مصر واستوعبت طاقاتهم المبدعة سيشعر بالحسرة والخجل من المعارك الوهمية باسم الدفاع عن مصر من اختراق المبدعين أو الفنانين الشوام يشعلها فاشلون يتسترون بها على الضعف وانعدام الموهبة!

فى البداية، كانت للشوام أحياؤهم الخاصة مثل "الفجالة"، و"شبرا"، و"الظاهر" و"السكاكينى".. وفى مربع لا يجاوز أربعة كيلومترات مربعة ما بين رمسيس والظاهر بنوا عددا كبيرا من الكنائس والمدارس الخاصة بهم، لكنهم تحولوا مع الزمن للسكن فى كل المناطق حسب وضعهم الطبقي.

كانت أكبر الطوائف هجرة بين الشوام الأرثوذكس، ثم الكاثوليك، ثم الموارنة، فالسريان، والكلدان، والأرمن، أما المسلمون فكانت النسبة الأكبر فى فترة ما بين الحربين العالميتين، وكانوا سريعى الاندماج فى المجتمع المصري. الطريف أن بعض العائلات اللبنانية خاصة من المارون سرعان ما استقرت فى مصر حتى صارت بلدهم الأول واستدعت بقية العائلة حتى أن عدد أبناء هذه العائلات فى مصر صار أكبر منه فى بلد الأصل لبنان كما فى عائلات «صعب» و«الزند» و«شديد» و«المنتوش» و«الجميل».. وفى حين لم يزد عدد الموارنة على ١٨٤ فردا عام ١٨٢٤م زاد فى عام ١٩٤٧م إلى ١٢ ألفا!

وكان لعدد كبير من هذه الأسر والعائلات دور ثقافى ريادى، فهم من أسسوا الصحف والمجلات الأولى فى مصر، «فسليم الحموى» أسس «كوكب الشرق» بالإسكندرية عام ١٨٧٢م، و«سليم وبشارة تقلا» أسسا «الأهرام» عام ١٨٧٥م قبل نقلها للقاهرة، وأسسا بمعاونة «سليم نقاش» أول فرقة مسرحية عرضت على قصر زيزينيا ١٨٧٦م وهم من أحضروا أول فرقة مسرحية

للأسكندرية (فرقة أبو خليل القباني) ١٨٨٤م، كما أحضروا أبرز الفرق الفنية فى العالم. وتحولت الإسكندرية وقتها لباريس صغرى.. لقد قُدرت ثروة المهاجرين اللبنانيين فى ١٩٠٧م بنحو عُشر الثروة القومية فى مصر!

وطوال تاريخهم لم يتعرض المهاجرون الشوام فى مصر للاضطهاد يوما بسبب الدين أو الانتماء السياسى وحتى موضوع "التأميم" لم يكن موجها لهم بشكل مباشر بل للأجنبى، ولم تقابلهم أى عقبة فى الاندماج، وحتى ابتعادهم عن المشاركة السياسية كان له صلة بكونهم ليسوا من أبناء البلد ومعظم اهتمامهم بالاقتصاد، ورغم ذلك نجحوا فى الاقتراب من مراكز صنع القرار على الأقل لحماية نشاطهم الاقتصادى، بل برزت منهم أسماء مهمة مثل "كريم ثابت" الصحفى الشهير ومستشار الملك فاروق الذى كان ينظر إليه فى بعض الدوائر باعتباره الملك غير المتوج!

تدريجيا، ومثلما فعلت مع كل الوافدين عليها، قامت مصر بتمصير هؤلاء المهاجرين حتى أصبحت الأجيال الثالثة والرابعة منهم من المصريين تماما كما هو الحال مع أسرة "الرافعي" القادمة من طرابلس (منهم المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، والأديب مصطفى صادق الرافعى)، وأسرة شلهوب (ومنهم عمر الشريف)، وأسرة شاهين (ومنها يوسف شاهين)، وأسرة صيدناوى الشهيرة أصحاب المتاجر المعروفة، وأسرة السيدة فاطمة اليوسف (ابنها الروائى والصحفى إحسان عبد القدوس)، وهناك من ولد وعاش فى مصر ثم عاد إلى لبنان مثل "بيير الجميل" الذى ولد وعاش بمدينة المنصورة عام ١٩٠٥م، ثم عاد إلى لبنان ليؤسس حزب الكتائب، وولداه بشير وأمين كانا من رؤساء لبنان.

مصر الكوزموبوليتانية العربية استوعبت كل المبدعين والتجار والصحفيين فى أزمنة النهضة، واكتسبت قوتها من هذا التنوع الرائع. وفى خضم هذه الحركة الموارة الثرية، فتح الناشرون

الشوام المهاجرون إلى مصر فتوحات كبرى فى عالم الطباعة والنشر، وبرز العديد من الأسر والعائلات التى امتنهت نشر الكتب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر؛ مثل عائلات: "الحلبى، الخانجى، الخطيب، القدسى، البستانى، تقلا" .. إلخ.

وكان بين أبرز اللبنانيين الذين هاجروا إلى مصر، واستقروا بها، وعاشوا فيها، "آل مترى، نجيب مترى، وولداه إدوارد وشفيق مترى"، وهى الأسرة التى اشتغل مؤسسها بمهنة الطباعة والنشر، وتوارثها من بعده ابنه "شفيق"، ويرتبط الاسمان "نجيب" و"شفيق" بصرح كبير، باهر، باذخ، اسمه دار المعارف.